وتخريج هذا التشبيه كمايلي:

- أهل العراق ⟵ - أهل القرية
- أمير المؤمنين أمر الحجاج بإعطاء أهل العراق أعطياتهم. ⟵ - الله أتى أهل القرية رغدا من كل مكان
- أهل العراق إذا لم يستقيموا على الحق كان عقابهم سفك الدماء، سلب الأموال وتهديم الديار ⟵ - أهل القرية كفروا بأنعم الله فتحول أمانهم وطمأنينتهم إلى خوف وجوع.

والملاحظ أن هذا النوع من التمثيل يقوم على الاستعارة والرمز بصفة عامة (فسفك الدماء، وسلب الأموال، وتهديم الديار) رمز للخوف والجوع، و«إعطائكم أعطياتكم» رمز إلى النعمة، وقوله «أن أوجهكم لمحاربة عدوكم» رمز لتحقيق الطمأنينة والسلام بعد الاستجابة للنداء والقضاء على العدو.

وخلاصة القول أن نماذج الأقيسة الخطابية من تعارض وتضاد، وتقسيمات مستقصية وتمثيل كلها تمثل ما يسمى بالانسجام الداخلي للخطاب الإقناعي.

IV- الانسجام مع الخارج.

تسمى الوسائل المستعملة في هذا الصدر عند أرسطو بالحجج أو البراهين الجاهزة، أو غير الصناعية، وتتضمن الشهود والاعترافات والقوانين وأقوال الحكماء، وإن كان هذا يخص الخطابة القضائية، فإن الخطابة العربية تتضمن بالمقابل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بالإضافة إلى الشعر والأمثال والحكم، وهي أيضا براهين جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى

مصداقية الناس عليها، وتداولها بينهم، أما دور الخطيب فإنه ينحصر في مدى براعته وتوفيقه لاختيار هذه البراهين، وتوجيهها إلى الغرض المقصودة للاستدلال عليها.

جاء في البيان والتبيين: «وأكثر الخطباء لا يتماثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل إلا أن تكون إلى الخلفاء»[1]، فالأبيات الشعرية إذا ما رصدت للإرهاب والإغراب كما في معظم خطب الحجاج؛ فإنها تعد بمثابة المثل والحكمة لما لها من قوة في التأثير والإقناع.

ولقد جرى خطباء العرب منذ العصر الجاهلي على التمثيل بالشعر في خطبهم، وهي سمة في الخطابة العربية، وأكثر ما نجد التمثيل بالشعر في خطب بني أمية وولاتهم، وقل أن نجده في خطب الخوارج والشيعة[2].

ولعل الحجاج خير نموذج لعصره، في إكثاره من الاستشهادات الشعرية، كما في خطبة الولاية، ومرد ذلك أن الأبيات الشعرية تساهم بشكل كبير في بناء الخطبة إلى جانب أن تدعيم الصورة بما تشيعه من إغراب وإحالة على عالم خاص يدعم الصوت والإيقاع كذلك، ومن أجل ذلك كان العرب يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل، وفي الكلام يوم الجمع آي من القرآن، أو كلام من النظم، لأن ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار، والرقة وسلس الموقع[3].

1)- البيان والتبيين، ج118/1.

2)- الخطابة العربية، إحسان النص، ص: 198.

3)- البيان والتبيين، ج118/1.

وهكذا فإن الاستشهاد بالآي القرآني لم يكن حكرا على الخطباء الدينيين دون غيرهم، بل استفاد من تأثير النص القرآني نخبة كبيرة من الخطباء على تفاوت في ذلك؛ ومن الخطباء الذين جعلوا المادة الأساسية في خطبهم ورسائلهم آيات قرآنية؛ عثمان بن عفان، مصعب بن الزبير، زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف الثقفي وغيرهم[1].

وبالإضافة إلى ما يؤديه المثل (قرآنا، شعرا، حكمة، ...) من دور في التأثير والإقناع، فإنه يشع في الخطب روحا بدويا (لا يقعقع لي بالشنان، لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل)، وذلك لارتباطها بالبادية، وقد اعتاد الناس تقبل مضامين الأمثال باعتبارها من خلاصة تجارب العقلاء من الأجداد والبلغاء، وهي مدعمة –في الغالب– بمجانسات صوتية تقوي الشعور بصحة محتواها.

وصفوة القول، أن النص القرآني وظف في خطب العرب لأغراض استدعته، باعتباره سلطة يتكئ عليها الخطيب إما في الاحتجاج لقضية مختلف فيها كما في المناظرات، وإما لتمثيل حالة مشابهة كما في خطبة الولاية «وإنكم لكأهل قرية...»، وإن كان هذا النوع غالبا في الخطب السياسية والوعظية، أما الغرض الأخير الذي وظف له النص القرآني فهو الاستئناس وذلك لخلق جو ديني كما في المناسبات الدينية والاجتماعية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خطباء بني أمية كانوا يميلون إلى التمثل بالشعر واستغلال إمكاناته الإيقاعية والبيانية والمعجمية، وذلك لخلق جو من الإغراب مهيء للمستمع كما في خطبة الولاية.

1)– بلاغة الخطاب الإقناعي، ص: 56.

IV-1- الأسلوب:

حاول «جرجياس» أن يطبق على النثر بعض المبادئ الجمالية المستقاة من الشعر، وحينها ظهر الأسلوب ولكنه أخذ مكانة أقل من غيره من عناصر الخطابة عند أرسطو ولكن بعد ذلك تفتقت جوانبه عند اللاتين حتى ابتلع البلاغة كلها، مشخصة في الصور البلاغية، أما في البلاغة العربية التي لم تميز بين الشعر والنثر إلا في بعض الجوانب، كعدم الالتزام بالوزن، أو التطرق إلى موضوعات دون أخرى، فلقد احتل الأسلوب الصدارة[1].

ومعلوم أن عامة الناس «يتأثرون بمشاعرهم أكثر مما يتأثرون بعقولهم فهم في حاجة إلى وسائل الأسلوب أكثر من حاجتهم إلى الحجة، فلا يكفي إذن أن يعرف المرء ما ينبغي أن يقال، بل يجب أن يقوله كما ينبغي»[2].

يستنتج من هذا القول أن مرمى الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والإفحام فقط بل مرماه حمل المخاطب على الإذعان والتسليم وإثارة عاطفته، وجعله يتعصب للقضية أو للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، فيتقدم لفدائها بالنفس والنفيس إذا اقتضت الضرورة، ولا يكون ذلك بالدلائل المنطقية تساق جافة، ولا بالبراهين العقلية تقدم عارية، ولا يمكنه في أي حال الاستغناء عن المثيرات العاطفية، بل إن أكثر ما يعتمد عليه الخطيب في حمل السامعين على المراد منهم هو مخاطبة وجدانهم والتأثير في عواطفهم[3].

---

1)- بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 97.

2)- النقد الأدبي، و.ويمزت، ك.بروكس، ج104/1.

3)- الخطابة العربية في أزهر عصورها، الإمام عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

وهكذا فإن الاستقراء يدلنا على أن أعاظم الخطباء يستعملون بعض قواعد المنطق، ولكنهم لا يقضون أوقاتهم في تنظيم الأدلة، وتنميق البراهين التي إن أقنعت لا تؤثر في السامعين؛ بل إنهم يحركون بالتدريج ساكن هؤلاء السامعين بضروب من المؤثرات التي يتفننون في تنويعها، لعلمهم أن ما يوجده أحد المحرضات من تأثير، لا يلبث أن يهن، وينفذ، وهم باستدراج لبق، وكلمات ساحرة، وصوت عذب، يكونون جوا عاطفيا ملائما لقبول استنباطهم[1].

ولعل هذا ما يجعلنا ندرك أن الخطيب الذي يخاطب الجماهير، لا يعول في خطبه على المنطق، بمقدار ما يعول على خلق جو عاطفي مهيئ لقبول ما يقدمه له من أفكار ليسلم ويذعن لما يطلب منه القيام به، كما فعل الحجاج بأسلوب التهديد والوعيد الذي يرعد النفوس ويبرق القلوب.

ومن هنا فإن الجماعة تقبل الدلائل العاطفية الوجدانية إن طوعا أو كرها، بينما تسأم من البراهين العقلية وتضجر منها، وذلك أن الذي يضل الجماعة المتحدة المشاعر والأهواء هو العاطفة، لا العقل، ولو كان أحادها من ذوي الفكر الصائب والعقل الناضج، فإن الواحد متى انضوى تحت لواء الجماعة، غلب عليه روحها العام، وسرت إليه عاطفتها، واستولت عليه مشاعرها.

وانطلاقا من هذا الاعتقاد، فإن البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا سعى الخطباء ذوو الملكة والحنكة والذين يعرفون كيف تتأثر، –سعوا– إلى مخاطبة شعورها، أكثر من مخاطبة العقل، ومرد ذلك أنه لا سلطان لقواعد المنطق على مشاعر الجماعة، ومن أجل إقناعها، ينبغي الوقوف أولا على المشاعر القائمة بها، والتظاهر بموافقتها، أو بالدفاع عنها، ثم يحاول

1)– الخطابة العربية، عبد الرحمن أبو زهرة، ص: 53.

الخطيب تعديلها بموازنات صغيرة عادية تشخص أمامها صورا مؤثرة كما فعل الحجاج (وإنكم لكأهل قرية...) و(إني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحي تترقرق)، (لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ...).

وبالإضافة إلى القدرة على التأثير في النفوس، ينبغي أن يكون الخطيب قادرا على الرجوع القهقري متى وجد المقتضى، وأن يتفرس في كل لحظة أثر كلامه في نفوس السامعين حتى يغير منه، كلما دعت الحاجة.

ومن هنا فإن الخطيب مطالب بتجميل الأسلوب حسب المقام، والجمهور الذي إليه الخطاب؟ سواء كان الخطاب شفهيا أو كتابيا أو حواريا، كما يجب على الخطيب ألا ينسى أن لكل نوع خطابي أسلوبا خاصا يليق به، فالأسلوب في الكتابة غيره في المناقشات، وهو في الجماعات غيره في المحاكم، وإذا كان أسلوب الكتابة أدق، فإنه في الحديث أشد حركة وتنازعا[1].

وتذكر الكتب أن أكثر الخطباء العرب، هم شعراء أيضا كقطري بن الفجاءة، والكميت وآخرون، كم أن من الخطباء من كانت له ثقافة أدبية واسعة قائمة على حفظ جيد الأشعار والأمثال مع حفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، والحجاج خير نموذج لهذه الطائفة[2].

وعن الحجاج يقول عمر فاروق الطباع: «كان الحجاج رجلا محبا للأدب، فلم يقصر حياته على الحرب والإدارة، بل كان يعقد للشعراء مجالس، ويجزل العطاء لمن مدح منهم بني أمية، أو أثنى على أعماله، ولعل الخطابة أبرز آثره الأدبية، وفيها تبدو شخصيته القوية الحازمة، وشدته،

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 67.

2)- المرجع نفسه، ص: 100.

وقسوته، وبطشه بأعدائه، وقد حفظت له الكتب القديمة مجموعة ضخمة من تراثه الخطابي الذي يكشف عن كثير من جوانب العصر، وصروف البيئة في أثناء ولايته على العراق، فقد كان يخطب في كل مناسبة، ويستعمل لسانه عند كل حادثة تقع، أو أمر يجري، أو ظاهرة تتجلى، كما كان يعمل سيفه في كل حركة عصيان، أو بادرة تمرد، أو شبهة تقع على أحدهم»[1].

وعلى هذا الأساس، فإن الحجاج في معظم المنتخبات لا يهذي بالأفكار التي تتيسر لأي شخص كان، وإنما نجده يعمد إلى نوع خاص من الأسلوب، ولئن كان أسلوب خطبة الولاية يعتمد الغلو، فقد بدا الحجاج مأخوذا بالنقمة منذ مطلعها، لأنه تجاوز «البسملة» فضلا عن سائر الأحاديث الدينية التي دأب الولاة والخلفاء على الاستهلال بها كإحدى سنن الخطب الإسلامية نتيجة لتوحيد الدين والدولة.

وعلى الرغم من الإمام علي –رضي الله عنه– كان أشد غيضا من زياد والحجاج إلا أنه لم يتخل عن المقدمة الدينية التي تبدو ضرورية لتخلع على كلام الخليفة صفة القداسة والتقوى، وإذا كانت خطبة زياد بن أبيه لم تبتدئ بالمقدمة الدينية، فذلك يوحي بصورة غير مباشرة إلى أن الأمويّين لم يأخذوا الدين في أعماق وجدانهم بالجد والتقوى الذين كان أسلافهم قد أخذوا بهما.

ونكاد نرى فيما بعد «أن الحجاج كان في حالة شبيهة بالحالة التي شهدناها في هذه الخطبة، لأنه لم يكد يعرّف بنفسه منذ أن استوى على المنبر، إلا بأنه طلاع الثنايا، وهكذا فإن الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– بالرغم من أنه لم يكن أقل نقمة من هذين الواليّين، ظهر أشدّ انضباطا،

1)– مواقف في الأدب الأموي، ص: 273–274.

وأكثر تقيّدا بأحكام الدين»[1].

ويظهر أسلوب النقمة من خلال قوله: «يا أهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق» فالغلوّ الذي شخّص في هذه الجملة يدلّ على أن الألفاظ كانت تنبئ في الواقع عن نفس موتورة، أكلها الحقد على أولئك القوم الذين أسرفوا في خروجهم عن الأخلاق.

ونحن إذ نتعمّق في خطبة الولاية، نجد أن الحجّاج يحاول أن يصلح سامعيه «بالإرهاب» الديني، مقلّدا بذلك الإمام علي -رضي الله عنه- وزياد بن أبيه حتى قيل «تشبّه زياد بعمر فأفرط، وتشبه الحجّاج بزياد فأهلك الناس»[2].

IV-2- السلطة الخطابية:

لئن كان الحجّاج قد اشتهر بالدهاء والقسوة وسفك الدماء، فقد شهد له بالفصاحة والبلاغة، شأنه في ذلك شأن الولاة والخلفاء الأمويّين، ولكنه كان يجيد لغة السيف، لغة التهديد والوعيد أكثر من غيره. قال الجاحظ: «زعم أصحابنا البصريون عن أبي عمر بن العلاء أنه قال: لم أرَ قرويين أفصح من الحسن والحاج»[3]. وعن مالك بن دينار أنه قال: «ربّما سمعت الحجّاج يخطب، ويذكر ما صنع به أهل العراق، وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه، وأنه صادق لبيانه وحسن تخلّصه بالحجج»[4].

---

1)- في النقد والأدب مقدمات جمالية عامة مقطوعات من العصر الإسلامي الأموي، إيليا الحاوي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، ط5، 1986، ج329/2.

2)- الخطابة العربية وفن الإلقاء، الدكتور أشرف موسى، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1978، ص: 79.

3)- المرجع نفسه، ص: 56.

4)- البيان والتبيين، ج228/1.

ويروى أن الخليفة عبد الملك بن مروان قال يوما لخالد بن سلمة المخزومي: «من أخطب الناس؟ قال: أنا، قال: ثم منْ؟ قال: سيّد جذام، يعني «روح بن زنباع». قال: ثم من؟ قال: أخفيش ثقيف» يعني الحجّاج. قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين. قال: ويحك، جعلتني رابع أربعة، قال: نعم، هو ما سمعت»[1].

ويكفينا من هذه الشهادات أن نتأكد من أن الحجّاج يملك سُلطة خطابية مكنته من استعمال كل وسائل الإقناع الضرورية، فقد جمع له بالفصاحة والبيان، وحسن التخلّص بالحجج، كما جمع له بأنه من أخطب الناس، وعن براعته في العقل؛ قال: صالح بن سليمان بن عبد الرحمن بن الحارث: «ما رأيت عقول الناس إلا قريبا بعضها من بعض، إلا ما كان من عقل الحجّاج بن يوسف وإياس بن معاوية فإن عقولهما كانت ترجح على عقول الناس كثيرا»[2].

أما عن اللّحن، فقد جاء على لسان الأصمعي: «أربعة لم يلحنوا في جدّ، ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان و الحجاج بن يوسف، وابن القرية، والحجّاج أفصحهم»[3].

ومن هنا فإن السلطة الخطابية الطبيعية التي يمتلكها الحجّاج، هي التي مكنته من اللجوء إلى شواهد حجاجية جاهزة كالشعر والآي القرآني، وهي لما تحتويه من قيمة علمية وتاريخية أصبحت بمثابة حجج جاهزة تكتسب قوتها من مصدرها، ومن مدى مصادقة الناس عليها، ومن مدى تواترها بينهم كما

1)- المرجع نفسه، ج1/204.

2)- المرجع نفسه، ج1/70.

3)- الخطابة وفن الإلقاء، ص: 55.

أنف الذكر.

وهكذا، فبعدما يشعر المتكلم بأن كفاءته اللغوية لم تعد قادرة على مواصلة المسار التواصلي، فإن تلك الحجج الجاهزة تكون بمثابة البديل، كما أنها تأتي كوظيفة تدعيمية «إنكم لكأهل قرية كانت آمنة...» ومقابلتها «من تخلف بعد ثلاثة أيام من أخذ عطائه سفكت دمه...» فالملاحظ في هذا التصوير البديع، هو أن عقاب أهل العراق هو نفسه عقاب أهل القرية (الخوف والجوع) على أنه لا يمكننا أبدا أن نطابق بين الخالق والمخلوق.

وبالإضافة إلى أن وظيفة الحجج الجاهزة تدعيمية فإنها تؤدي وظيفة أخرى، هي إعادة التوازن بين المتكلم والمخاطب حينما يعتري العملية التخاطبية نوع من الخفوت في التفاعل، أو حينما يشعر الخطيب بذلك الخفوت، بعدما يكون آخذا في معنى «وكأنه يعترضه شك أو ظن، أن رادا يرد قوله، أو سائلا يسأله عن سببه، فيعود راجعا إلى ما قدّمه، فإما أن يؤكده أو يذكر سببه أو يزيل الشك عنه»[1].

وعلى هذا الاعتبار، تبدو الإجابات عن أسئلة مفترضة (زعمتم أني ساحر) والإقرار (وقد قال تعالى: ﴿ولاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾ والنتيجة (قد أفلحت) بمثابة حجّة. وغيرها من الأسئلة التعجبية (يزعمون أنا من بقايا ثمود! وقد قال تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى﴾[2] (وزعمتم أني أعلم الاسم الأكبر فلم تقاتلون من يعلم ما لا تعلمون ؟!)[3] والشرط القائم على الإقرار بوضعياته

1)- الصناعتين، ص: 439.

2)- سورة الحاقة، الآية: 108.

3)- البيان والتبيين، ج120/1.

معنية (من تخلف... سفكت دمه...) هي بمثابة الفعل الاستنتاجي العام (الذي تتمحور حوله كل المعطيات الحجاجية في الخطاب الإقناعي، والأساس الذي يقيم عليه الحاج استدراجه.

وبعد، فلقد تمكن الحجاج بكل ما يمتلكه من معطيات معرفيه، وقدرات لغوية تحليلية من تقديم العلل والأسباب التي جعلته يجمع أهل العراق ليسمعوا ذلك الدّوي الصارخ، فهو بعد أن يفتخر بنفسه، ينصرف إلى عرض صفات أهل العراق الذين انصرفوا إلى الشقاق والنفاق، معددا معاصيهم التي تستوجب العقاب، مؤكدا عزمه، معلنا لهم أن من يعطي له أمرا كان حظه السفك، ولعل الحجاج يكون قد استشعر عظم التهديد والوعيد الذي يحيطهم به، لذا نراه يوهمهم بالعدل واللين، ليؤكد لهم أنه يبتعد عن الأحقاد الذاتية، ويدعوهم للدفاع عن بني أمية، مؤكدا لهم في الآن ذاته أن له فيهم صرعى كثيرين، فليحذروا أنه يكونوا من صراعه.

ومن هنا، فإن تلك الأساليب التي انتهجها الحجاج كانت قادرة على التأثير والإقناع، لأنها لوّنت خطابه بنوع من الشمولية التي أعطت للمخاطب معارف لازمة به وذلك من خلال الشرح الذي «هو زيادة عن كونه نشاطا معرفيا، ونتاجا للمعرفة وموضوعا للفكر، له قواعده ومنطقه الداخلي، فهو نشاط لا يمكن إبعاده عن النشاط اللغوي: إنه أسلوب عقلاني للحديث عن التجربة»[1]، ومن هنا فهو ذو أهمية كبرى للمحاججة.

1)- L'explication dans l'argumentation, Langage Française, M.J. Borel, N°50, Parie, 1981, p: 22.

فإذا كانت أفعال الكلام الجزئية من نداء وأمر ونهي وشرط والتي زخرت بها خطبة الولاية قد مكّنتنا من الكشف عن ذلك الصراع الذي كان قائما بين الراعي والرعية، فإنها قد أدّت إلى مستوى دلالي أكبر هو فعل الكلام ذو الطبيعة الشاملة أو فعل الكلام الجامع (Marco acte de langage)[1].

ويبدو أن ظروف عصر الحجاج السياسية والاجتماعية والدينية كانت مرجعا استقى منه الحجاج أفكاره. ولذلك جاءت معظم خطبه لتمثل وتعكس تلك الظروف، خاصة وأن المجتمع الإسلامي آنذاك كان مقسما إلى كتلتين: أهل السنة وأهل الشيعة. الأمر الذي أدى إلى ذلك الخلاف والصراع الحاد ولعل هذا ما يؤكده قول التوحيدي في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»: «فسفكت الدماء، واستبيح الحريم، وشنّت الغارات، وخرّبت الديار، وكثر الجدال، وكثر القيل والقال، وفشا الكذب والمحال، وأصبح طالب الحق حيرانا...، وصار الناس أحزابا من النحل والأديان،...»[2].

ومن هنا، فإن خطب الحجاج تنقل لنا أخباراً في أحد جوانبها التعبير عن قضية، وموقف معيّن، قضية ذلك الصراع بين أهل العراق وبين حكامهم، وموقف الحجاج من ذلك. الأمر الذي يؤكد أنه هناك تفاعل أكيد بين الخطيب والمخاطب.

وعلى هذا الأساس، تكشف أقوال الحجاج عن صراع ديني سياسي يتمثل في تمرد أهل العراق على الدين والدولة وذلك أنهم لم يأخذوا الدين بالجد، ولا ذاذوا عن الدولة الأموية.

---

1)- تحليل الخطاب الصوفي، ص 122.

2)- الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، تصحيح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د.ت، ج2/77-78.

يتجلى واضحا أن خطب الحجاج تعد بمثابة البديل السيميائي الذي يظهر من خلال استراتيجية ذلك التحاور الذي أقامه الحجاج على التشكيل التعارضي بين (الأنا) المفتخرة، المهددة، و(أنت) المتمرّدة؛ الأمر الذي يكشف بدوره عن الصرع بين الراعي والرعية، بين قوة حاكمة، وقوة محكومة، بين قوة لا ترحم، وقوة لا تطيع إلا تحت ضغط الإرهاب.

ولعل شعار «الإرهاب» هو الذي ألجأ الحجاج إلى اعتماده كوسيلة مساعدة على الإقناع، وكأني بالذين أصغوا إلى خطبة الولاية يردّدون في أنفسهم قول الأديب الفرنسي «مونتين» إن رأسي ينحني أمام سيّد خطير، أما عقلي فلا ينحني[1].

IV-3- سعة الاطلاع:

يبدو واضحا، من خلال خطبة الولاية، أن الحجاج كان على اطلاع واسع على أحوال عصره وبيئته، ولعل هذا الذي يساعده على الإقناع، وذلك أن سعة الاطلاع تمثل وسيلة أخرى للعثور على أدلة إقناعية، وإن كان «عمر الطباع» يرى أن «الحجاج لم يكن يرمي في خطبته إلى الإقناع، إنما كان يرمي إلى الإخضاع والإذلال وتنفيذ المشيئة بوساطة الإرهاب، كان يرمي إلى تأدية الرسالة التي انتدب لها، ولا يهمه نوع الوسيلة الموصلة إلى الهدف، وكأن شعاره «الغاية تبرّر الوسيلة» بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونؤكد أنه كان يفضل إرهاب الناس على استمالتهم وكرههم له على محبّتهم إيّاه»[2].

وما يؤكد قول عمر الطباع، على أن الحجاج لم يكن يكترث بحب الناس له، هو خطبة الحجّاج نفسه في أهل الكوفة وأهل الشام التي مطلعها:

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص 279.

2)- المرجع نفسه، ص: 279-280.

«يا أهل الكوفة، إن الفتن وتلقح بالنجوى، وتنتج بالشكوى، وتحصد بالسيف. أما والله إن أبغضتموني لا تضروني، وإن أحببتموني لا تنفعوني، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم، ولا المستريح إلى مودتكم...»[1].

ولكنا إذا كنا نتفق مع الدكتور عمر الطباع في عدم اكتراث الحجاج ببغض أهل الكوفة ولا بمحبتهم له، فإننا نخالفه الرأي في كون الحجاج لم يكن يرمي إلى الإقناع في خطبة الولاية، ودليلنا على ذلك، أن هذه الخطبة تحتوي على كل مقومات الخطاب الإقناعي كل بمقدار.

* **البراهين الخطابية:**

أ- براهين جاهزة:

- استشهاد الحجاج بآية من القرآن الكريم (الآية 111 من سورة النحل)، وكما هو معلوم عن حياة الحجاج أنه معلم قرآن وابن معلم للقرآن الكريم.

- استشهاده بأبيات شعرية في بداية الخطبة وفي وسطها، أي كلما استدعى منه الظرف التدليل على أقواله.

ب- براهين غير جاهزة:

- التقسيم والمقابلة والترادف بين المعاني لادعاء الاستقصاء والإحاطة ومن الترادف قوله: لأحمل الشرّ بحمله، وأخذوه بنعله، وأجزيه بمثله؛ ومعناه أني أقابل الشرّ بالشرّ.

وقوله: لا أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا أمضيت، ولا أخلق إلا فريت؛ والمقصود بذلك أنه يوفي بكل ما يعد به.

1)- في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط1، ص: 134.

د- أما الأسلوب فإنه يقوم على:

- غلبة الموازنات الصوتية-الإيقاعية؛ فقر متناظرة التركيب، ومتجانسة القافية (بحمله، نعله، مثله)، (أبصارا، أعناقا)، (طامحة، متطاولة)، (قطافها، صاحبها)، بالإضافة إلى ذلك التجانس في الأبيات الشعرية (زيم، حطم، غنم، وضم)، عصلبي، دوي، أعرابي)، (شدّوا، جدّوا)، (عردّ، أشدّ، بدّ)، (العراق، الشقاق، النفاق، الأخلاق) هذا التجنيس والسجع الذي يمنح الخطاب جرسا موسيقيا.

- ثم يميل إلى الاسترسال مع الآية الكريمة حتى يجنّب الخطبة التكلّف الذي يسيء إلى الوظيفة التواصلية الإقناعية.

- الميل إلى التصوير المرعب، «وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحيّ تترقرق».

- ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمز جانبي كتغماز التين؛ ومعناه: لست كالإبل التي يضرب لها على قرب خاوية حتى تسرع في السير، ولست ضعيفا كالتين.

- نثر كنانته، عجم عيدانها، فوجدني أمرها عودا، وأصلها مكسرا؛ والمقصود أن الأمير لم يخترني واليا عليكم لنسبي ولمالي ولا بمحض الصدفة، ولكن لأني أهل لتلك المهمة التي وكلت إليّ.

- أوضعتم في الفتن، واضطجعتم في مراقد الضلال، وسننتم سنن الغي؛ ومعناه أنهم تمادوا في الكفر.

- لألحونكم لحو العصا، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنّكم عصب السلمة، ولأضربنّكم ضرب غرائب الإبل.

– ثم يختم خطبته بالتهديد والوعيد كما بدأها، مراعيا في الخطبة كلّها المقام والذوق العربي الميال إلى الإيجاز في مثل تلك المواقف.

هـ– السياق:

إن الكشف عن السياق لا يتم إلا فيما ينتجه التفاعل بين المتكلم والمستمع، ولذلك فإن الخطيب يقيم مخاطبته على ما يفترضه هو من تبادل وتدخلات وردود أفعال المخاطب، وهي نفسها التي تسمع للمتلقي بأن يفرض هو بدوره ويبني المعنى على تلك الافتراضات. ومن هنا يسمح الاشتغال الواسع على الأساليب بتشكيل قابلية التلقي؛ كما يسمح بتكوين شروط التأثير والإقناع.

ويظل الحجاج يفتخر بذكائه وفطنته وشجاعته وقوته، وبإشهار سيفه في معظم خطبه، دونما ملل ولأجل ذلك فإن أقواله تكشف عن صراع حادّ، وتكاد خطبة الولاية تكون بمجملها مجموعة من معاني الرعب مفرغة في صور مخضبة بالدّماء، ومعبّرا عنها بألفاظ وتعابير مختارة من معجم السفاحين ولهجاتهم. ولذلك فإننا لا نستشف من تقريعه سوى النقمة الحاقدة، والكره المتأصل في أعماق نفس نيرونية مضطربة لا يعيد إليها الهدوء سوى مشهد الدماء والأشلاء[1].

وانطلاقا من هذا الرأي، فما أشبه الحجاج بالطبيب الذي يعالج كل الأدواء، مهما تنوعت واختلفت أعراضها بدواء واحد، هو دواء الإرهاب، ذلك الإرهاب الذي يقوم عند الحجاج مقام الأدلة الدينية والعقلية والعلمية والتاريخية والقرائن[2].

1)– مواقف في الأدب الأموي، ص: 279.

2)– المرجع نفسه، ص 280.

ومن هنا فإنه إذا ما تمّ اعتبار الخطابة فن التأثير والوصول العملي إلى الغرض المقصود، فالحجاج من أبرز خطباء الطبقة الأولى؛ وذلك أن خطبه تؤثر في القلوب حتى تميتها وفي الإرادات حتى تشلّها، وفي النفوس حتى تزعزعها، وفي العزائم حتى تهدّمها، وتحقق له في الوقت ذاته من الوجهة العملية الغاية التي يرمي إليها، إذ تنحني أمامه الرؤوس، وإن تمرّدت عليه الضمائر[1].

ولعل الشيء الذي يوحي «بالإرهاب» في خطب الحجاج هو لجوءه إلى المعاني التي ترادف الموت والقتل والتنكيل، وكذا إلى الصور المرعبة المخضبة بالدماء، والعارضة للموت بأشكال وألوان مبتكرة تقشعرّ لها الأبدان، وإلى الألفاظ التي تشير إلى الفتك والبطش والهلاك، يصحب كل ذلك نغما موسيقيا، يشبه تارة الموسيقى الحربية العنيفة النبرات، وطورا موسيقى المناحات التي ترافق الميت إلى مثواه الأخير.

ومما يلاحظ كذلك في خطبة الولاية، أن الحجاج لا يقيم وزنا لا للحدود الإنسانية ولا للعلاقات الاجتماعية، فأهل العراق عنده سواء، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم،...، مما يدل على نقمته الحاقدة، وعلى تلك العصبية التي عبّر عنها بإكثاره من التأكيد، (إني والله، أما والله، وبأنّ، وقد) وغيرها من الأدوات التي تؤكد تصميمه العنيد الذي لا رجعة فيه، بالإضافة إلى سمعته الاجتماعية التي ساعدته على بث الرعب في النفوس والوصول الفوري إلى تحقيق الغايات.

وبعد، فلقد سبك الحجاج خطبه المنتخبة بأسلوب بدوي يعتمد على العبارات المقتطعة الموجزة، والصور والتشابيه الحسية، يفرغها مسجوعة

1)- مواقف في الأدب الأموي، ص: 280.

أحيانا، وتارة مرسلة وهي في كلتا الحالتين تتسم بميسم جزالة التراكيب، وشدة الأسر، واختيار الألفاظ المدوية النازلة في منازلها.

ويضاف إلى كل ما سبق ذكره، أن الحجاج استغرق كثيرا في البلاغة، فلقد جاءت تعابير خطبة الولاية متفقة ومقتضى حال نفسيته ونفسية أهل العراق، والحالة السياسية التي كانت سائدة آنذاك، ومطابقة مقتضى الحال – كما هو معلوم– لا تقتصر على التعابير والمعاني والصّور. وإنما تتجاوزها إلى موسيقى عسكرية الجرس، كئيبة الوقع في النفوس، وكأنها جاءت تدعم وسائل الخطيب في الإجهاز على الأعصاب؛ الأمر الذي يدل على أن السياسة الأموية كانت ترتاح إلى هذا الضرب من الأدب البدوي الجاهلي البعيد عن روح مكة والمدينة[1].

V– البناء الدلالي الإقناعي في منتخبات الحجاج (الدلالة والإيقاع):

إن طبيعة الكذب والزيادات الشهية في الخطابة التي هي فن الإقناع، تمثل كل ما زاد عن متطلبات التوصيل دون أن توقع في الغموض والبعد عن التأثير والإقناع، ويمكن إرجاع جانب من ذلك إلى الصورة البيانية، ابتداء من النعوت والأوصاف إلى التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية،... كما يرجع إلى جانب منها إلى المقابلة بين المعاني (الطباق) واختيار الألفاظ المعبّرة[2].

وعلى هذا الأساس، أدّى تراكم الصفات والأقوال التابعة المتكررة للضمائر إلى تجسيد المفاهيم في شكل وحدات مكرّرة تحققت على مستوى الصيغ وتوازن العبارات لتنتهي إلى نوع من التجانس الصوتي الذي سمّاه

1)– مواقف في الأدب الأموي، ص: 281–282.

2)– في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط2، ص: 100.